

---

**الملاح العربي الخليجي**

**أحمد بن ماجد**

**ظلمه المؤرخون وأنصفه الجغرافيون**

**أسد البحار**

بقلم: الدكتور فاضل محمد الحسيني



---

اشتهر العمانيون ببراعتهم كملاحين منذ بداية تاريخهم المدون في الملاحة والتجارة عبر العصور التاريخية، ووصفها المؤرخون القدامى بأنها بلاد الملاحة والشراع لأن أهلها أول من رفع شراعاً في البحار واقتحم الأخطار فمارسوا الملاحة وكانوا الصلة بين الشرق والغرب<sup>(١)</sup>.

هناك أمثلة كثيرة على ذلك منها رحلة "أبو عبيدة عبد الله بن القاسم" في منتصف القرن الثامن إلى كانتون حيث أكدت المصادر الصينية كذلك على وصوله إلى هناك، وذكرت بأنه في فترة وجوده كانت هناك جالية كبيرة من العرب المسلمين في الصين وأن مسجد كانتون الذي لا يزال قائماً إلى اليوم يعد أقدم مسجد في الصين.

ومن النقاط المضيئة في تاريخ البحرية العمانية انتصارهم عام ٨٥٠م على الحبشة وطردهم من جزيرة (سوقطرة) التي سيطر عليها العمانيون ردحا طويلا من الزمن والتي هي الآن تابعة لليمن<sup>(٢)</sup>.

لقد ظل العمانيون يتمتعون بمركز محترم في الملاحة حتى غزا البرتغاليون منطقة الخليج العربي، فقد بدأ البرتغاليون بالاتجاه صوب الشرق عندما أصبحت مهمة البحث عن طريق جديد للملاحة والتجارة مهمة ملحة لدى الأقطار الأوروبية مدفوعة لذلك بعوامل اقتصادية ودينية إذ كان العرب المسلمون يسيطرون على أهم طريقين تجاريين عالميين وهما طريق البحر الأحمر ومصر وطريق الخليج العربي والعراق والشام. وكانت المشاكل والخلافات السياسية تؤدي إلى إغلاق أحدهما أو كليهما فتتوقف نفائس الشرق من التدفق إلى أوروبا، ولذلك، ولكل هذه الأسباب عازمت أوروبا على

---

دخول عالم الاستكشافات الجغرافية بغية التعرف على طرق جديدة تربط الشرق بالغرب وتقضي على الطرق الواقعة تحت سيطرة العرب والمسلمين يتقدم العامل الديني كل الأسباب والدوافع لذلك. إن أول من تصدى للقيام بهذه المهمة هم البرتغاليون بسبب استقرار أحوالهم السياسية وقد

قال (هنري الملاح) صراحة بأن هدفه هو أن يهزم الإسلام تماما ونهائيا.

وبالفعل بدأ البرتغاليون بالاتجاه نحو السواحل الشمالية والشمالية الشرقية للقارة الأفريقية، فوصل هنري الملاح إلى "سبته" في الغرب الأقصى عام ١٤١٥م بينما قام (بارتلميو دياز) برحلته عام ١٤٨٧م حول سواحل أفريقيا الغربية بهدف الوصول إلى الهند.

أما (فاسكو دي جاما) فإن لرحلته أهمية استثنائية لأنه أول من وصل إلى الشرق حيث سار بحملته بمحاذاة السواحل الغربية للقارة الأفريقية فوصل إلى النهاية الجنوبية للقارة وهي منطقة (رأس الزوابع) التي سماها فيما بعد ب (رأس الرجاء المالح)، ثم استدار شمالا نحو السواحل الشرقية فوصل موزمبيق ومالندي عام ١٤٩٨م وقد شاهد البرتغاليون هناك سفنا عربية أدهشتهم صناعتها فألواحها مسمرة بمسامير وملاحوها يحملون معهم البوصلة البحرية والمزاويل والخرائط الجغرافية، فرغب فاسكو دي جاما في الاستفادة من الخبرة العربية للوصول إلى الهند فكان ذلك اللقاء التاريخي العلمي مع الملاح العربي الخليجي (أحمد بن ماجد).

استفاد دي جاما كثيرا من الخيرات العلمية العربية التي يمتلكها ابن ماجد في عالم الملاحة والبحار، وقد أكدت ذلك غالبية المصادر التاريخية بما فيها المصادر البرتغالية، إذ ذكر لنا المؤرخ

---

البرتغالي (باروش) في كتابه (آسيا البرتغالية) أن لي جاما التقى في منطقة مالندي بملاح مسلم وهو لديه عدد كبير من الخرائط والآلات، ولم يكن هذا الملاح المسلم سوى أحمد بن ماجد الذي يعد من أكبر وأهم ملاحي العرب المسلمين في كل العصور وله العديد من المصنفات المهمة في الجغرافيا الملاحية بلغت حوالي الأربعين مؤلفاً، إلا أن أهمها على الإطلاق م كتاب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" تحدث فيه ابن ماجد عن الملاحة بجانبها النظري والعلمي كما تحدث عن البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي. وقد وصف هذا الكتاب بأنه ذروة التأليف الفلكي الملاحي عمره حيث يعد مرجعاً من المراجع البحرية النادرة وغاية ما وصلت إليه الكتابة العربية عن الملاحة، وقد ظل الملاحون في المحيط الهندي يعتمدون عليه في رحلاتهم حتى نهاية القرن الثامن عشر (٣) وقد أكد لنا القدسي ذلك في كتابه (أحسن التقاسيم)، حيث شاهد بنفسه هذا الكتاب لدى الملاحين العرب يعتمدون عليه في رحلاتهم عبر المحيط الهندي فقال "أما أنا فسررت فيه (أي في المحيط الهندي) نحو ألف فرسخ ودرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبادان سوى ما توهمت بنا الراكب إلى جرائره ولججه، وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشأوا من رباين وأشائمه ورياضيين ووكلاء وتجار، رأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها، ويعملون بما فيها ... ومن هذه الدفاتر كتاب الفوائد لابن ماجد الذي صحح فيه الكثير من أخطاء سابقيه، وسجل فيه خبراته وتجاربه التي اكتسبها من خلال اشتغاله ربانا لسنين طويلة (٤).

---

كما أكد أحمد بن ماجد في مؤلفه القيم هذا على أهمية معرفة الملاحين بنظام الهبوب للرياح الموسمية في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر لما لها من الأثر الكبير في تسيير رحلاتهم البحرية نحو الهند والصين وشرق أفريقيا وذلك إبان فترة الازدهار التجاري للخليج العربي (من منتصف القرن الثامن إلى مطلع القرن السادس عشر للميلاد أي منذ نشوء الدولة العباسية ببغداد حتى غزو البرتغاليين لياه الخليج العربي عام ١٥٠٧م).

وقد جاء تأكيد ابن ماجد لهذا الآم من خلال وضعه للقوانين التي ترشد السفن أثناء هبوب الرياح وحذر من تجاهل هذا الأمر بقوله "يجب أن نذكر مواسم السفر التي لا يستوي المفر إلا بها، لان فوات الموسم وتقديمه أو تأخيرها داع إلى ما لا خير فيه" (٥).

وهناك كتاب ثان لابن ماجد قد ذاع صيته مؤخرا وهو (حاوية الاختصار في أصول علم البحار) الذي أولى اهتماما فائقا لدراسة السفن وصيانتها جيدا وهي على الأرض والتأكد من سلامة الآلات والأجهزة الملاحية التي فيها قبل نزولها للبحر وذلك ضمانا لسلامة الركاب، جاء ذلك في شروحاته وأراجيزه فقد قال "تأمل السفينة فوق الأرض واكتب جميع خللها"، كما قال شعرا:

وحدد الآلة قبل السفر كحقة أو قياس أو حجر

والبلد والفانوس والرهمانج وإن تكن سافرت كمن حجج

ويقصد ب (الحقة) أي بيت الإبرة وهو المغناطيس الذي يعتمد الملاح وهو دليل على

القطبين، وقد أكد ابن ماجد على ضرورة معاينة مكانها جيدا.

---

أما (البلد) فيعني به الآلة التي تسير في الأعماق، بينما يقصد (الرهمانج) المرشد الملاحي.

وقد أشار ابن ماجد إلى الفترة التي أمضاها في تأليف هذا الكتاب، فقال "وما صنفت هذا

الكتاب إلا بعد أن وقف لي خمسين سنة" (٦).

ومن المفيد الإشارة إلى أن الاسم الكامل لابن ماجد هو شهاب الدين أحمد بن ماجد

السعدي النجدي وهو من مواليد منطقة (جلفار) والتي تسمى حالياً برأس الخيمة، وهي تقع بدولة

الإمارات العربية المتحدة.

وفي الواقع، إن استفادة لي جاما من الملاح ابن ماجد كانت كبيرة لدرجة أن اقتنع بعدها

بتغيير مسار السفن البرتغالية عبر المحيط إلى الهند حيث وصلها دي جاما فعلاً في الثالث والعشرين

من شهر مايو ١٤٩٨م وقد عصف هذا الحدث بالتجارة العربية الإسلامية كما أدى الاحتلال

البرتغالي لعموم منطقة الخليج العربي والقضاء على سيادة العرب المسلمين على الطريق المهم الذي

يربط الشرق بالغرب.

ومهما يكن من أمر، فقد تحامل المؤرخون كثيراً علي ابن ماجد واعتبروه السبب في نجاح

البرتغاليين والقضاء على التجارة العربية الإسلامية وتمكينهم من احتلال واستعمار عموم المنطقة

العربية الإسلامية الممتدة من المغرب الأقصى وحتى الهند، ولكن هذا التحامل ليس له ما يبرره، فقد

اندفع ابن ماجد في إعطاء المعلومات بصفته عالماً ملماً بعلوم البحار، التقى شخصاً مهتماً بذات العلوم

ولم يتعرف على نواياه الاستعمارية العدوانية الحقيقية وخلال تبادل المعلومات والنقاش العلمي في

---

مسائل تخص الملاحة والبحار توصل دي جاما إلى الصحيح للوصول إلى الهند ولم يكن في نية ابن ماجد البتة أنه قد سهل أمرا في غاية الخطورة على التجارة والسيادة العربية الإسلامية وإنما كان منطلقا في ذلك بدوافع التقاليد العربية والبادئ الإسلامية كانسان عربي مسلم يجب عليه إرشاد التائه للطريق السليم، كما أنه تصرف بدافع الإنسان العالم المتبحر في علوم البحار فتبادل المعلومات العلمية مع إنسان آخر يفقه العلوم ولديه الفضول العلمي في معرفة المزيد من المعلومات، فحقا قد ظلم المؤرخون ابن ماجد عندما قالوا بأنه وراء وصول البرتغاليين إلى غايتهم في القضاء على التجارة والسيادة العربية بقصد، بينما أنصفه الجغرافيون الذين حفظوا له دوره الكبير في الملاحة وعلم البحار فاستفادوا من مؤلفاته وخرائطه في تطوير وازدهار علم الملاحة والبحار.

د. فاضل محمد الحسيني

---

## الهوامش

- ١ . فاضل محمد، يمان في عهد الإمام احمد بن سعيد، الطبعة الثانية ١٩٩٤م، عمان، ص ١١٣.
- ٢ . ملامح من تاريخ عمان، تأليف مال الله بن علي بن حبيب، ترجمة محمد محمد كامل، عمان، ص ١٦.
- ٣ . جورج فضل حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٢٣٧.
- ٤ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١١.
- ٥ . شهاب الدين أحمد بن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم الخوري وعزت حسن، دمشق ١٩٧١م ص ٣٠٩.
- ٦ . عمان في التاريخ، مسقط ١٩٩٤م ص ٣٤٥.